الأسس الجغرافية والتاريخية
للوحدة اللوبية

للاستاذ مصطفى عبد الله بعيو

« تتمة »

على أن موجة الفتح العربي هذه التي ربطت بين الأجزاء الثلاثة سرعان ما تلتها موجات أخرى عربية كان لها أثر كبير في تدعيم هذه الوحدة الجنسية . ومع ما لإقليم فزان من موقع جانبي بالنسبة لموجات القبائل العربية في طريقها إلى الغرب إلا أن الملاحظ أن الدم العربي يسود القبائل الفزانية . ولا شك أن هذا الأثر لم يصل إلى فزان مباشرة إلا عن طريق طرابلس كبقية المؤثرات السابقة التي أتت من الشمال ومن أظهرها وصول المسيحية إلى فزان في العهد الروماني .

وكان من أهم الموجات العربية التي أثرت في لوبيا هجرة بني هلال وبني سليم وقد أراد بعض الكتاب أن يتخذوا من استيطان معظم قبائل بني سليم في برقة وغالبية بني هلال في طرابلس وتونس مدعاة لاثبات اختلاف التكوين الجنسي لكل من الاقليمين؛ ولكن فاتهم أن هذه القبائل جميعها عربية وإن اختلفت في التسمية، ولهذا يستبعد اختلاف تأثيرها خصوصا وأنها تتحد في الأصل القبلي ، اذ المعروف ان بني سليم وبني هلال يتحدون في الأصل بانتمائهم إلى مضر من بادية نجد . ولو كان بنو سليم من عرب الشمال وبنو هلال من عرب الجنوب لكان من الممكن إلتماس الأسباب لهذا الزعم ولكنهم جميعاً من أصل وموطن متحد.

على أن هذه الموجات العربية التي أتت من الشرق وربطت بين أجزاء البلاد سرعان ما تبعتها موجات أخرى أتت من الغرب وزادت في قوة هذه الرابطة الدموية ثم المعتقد أنه بعد اختفاء المجتمع الاغريقي الروماني بعد الفتح العربي كانت مدينة (برنيق) المعروفة الآن ببنغازي غير مسكونة حتى القرن الخامس عشر الميلادي عندما عادت الحياة إليها من جديد بواسطة المهاجرين من جماعات التجار من مدن الساحل الطرابلسي ومن بينهم أولئك الذين أتوا من مسراطة وقد زاد عددهم على مر الأيام حتى أصبحنا نرى أخيراً في مدينة بنغازي شوارع تحمل أسماء قرى معروفة في مدينة مسراطة فهذا شارع (جزير) وذلك شارع (قصر أحمد) وهكذا وكلها أسماء لقرى ما زالت عامرة بأهلها في مسراطة قد نزح بعض أفرادها إلى بنغازي واستوطنوا حتى أصبح المعروف بين البادية أن كلمة (مسراتي) معناها ذلك الذي يسكن بنغازي . وربما تكون لغة الأرقام أكثر توضيحاً لارتباط عائلات مدن برقة بأصولها في مدن طرابلس إذا عرفنا أن قرية واحدة من قرى مسراته متوسطة في عددها لها علاقات عائلية بستة وسبعين شخصا من أفرادها المقيمين في برقة والذين يتولون بدورهم الاشراف على عائلاتهم الخاصة . وهذه درنة كذلك قد زاد عدد سكانها باقامة التجار الآتين إليها من المدن الساحلية في طرابلس . وإذا عرفنا أن أهالي مدينة درنة ثانية مدن برقة أهمية ينقسمون إلى (تواجير) نسبة إلى تاجوراء وإلى (مسارته) نسبة إلى مسراته وإلى (ظليتنية) نسبة إلى ظليتن وإلى (قولاوغلية) نسبة إلى أبناء القرى الانكشارية أدركنا النسبة العالية التي ساهمت بها بعض مدن ساحل طرابلس في تكوين سكان درنة . وبهذا الشكل فيما يختص ببقية مدن برقة كتوكرة والمرج وطبرق وغيرها . وما زال هؤلاء النازحون على اتصال باهلهم وذويهم في المدن الساحلية الطرابلسية والعكس بالعكس . وانا أن نتصور مدى الصعوبة الاقتصادية والعلاقات العائلية التي يلاقيها سكان البلاد لو تحققت نظرية فصل الاقليمين عن بعضهما .

هذا من ناحية العلاقة البشرية أما إذا درسنا جغرافية البلاد الاقتصادية فاننا نلاحظ أن البلاد تصاب بأعوام الجفاف من سنة لأخرى فتتعرض حياة البلاد للمجاعة كما تتعرض الثروة الحيوانية للهلاك ولكن الملاحظ أيضا أن سنوات الجفاف إذا حلت فهي في الغالب لا تشمل كل البلاد بشقيها فاذا قلت

الأمطار فى طرابلس كان مستواها فوق المتوسط أو متوسطاً فى برقة والعكس بالعكس . وبمراجعة المجاعات التاريخية التى حدثت فى البلاد نجد أن تكون قد عمت البلاد جميعها وهذا مما يخفف من حدة الأزمة ويجعل البلاد تمر منهـــا بسلام كما حدث فى سنة ١٩٣١ (المعروف بعام بنغازى عند الطرابلسيين) عندما بعث أهالى طرابلس بحيواناتهم إلى برقة . وكما حدث فى سنة ١٩٤٦ عندما اضطر أهالى برقة إلى بعث بكثير من ماشيتهم إلى برقة . وهذا أيضا ما نلاحظه فى هذه السنة فقد نشرت مجلة Sunday ghibay الصادرة بطرابلس الغرب فى عددها (١٢١) بتاريخ ٩ أبريل سنة ١٩٥٠ أن قبائل برقة التى على الحدود الغربية أخذت تنتقل بحيواناتها إلى طرابلس نظراً لسوء موسم الأمطار هذه السنة فى برقة .

ونحن إذا درسنا الجغرافية الاقتصادية للاجزاء الثلاثة لوجدنا مثلا فزان تعتمد إلى حد كبير على شمير طرابلس كما أن موانى طرابلس هى المنفذ الطبيعى لإمداد أهالى فزان بما يحتاجون إليه وتصدير ما يستغنون عنه أو ما يجلبونه من السودان إذ أن أقرب الموانى إلى فزان هى موانى طرابلس الغرب بعكس ما لو اتجه أهالى فزان إلى موانى تونس أو الجزائر كما هى الحال الآن .

هـذا والانتاج المحلى لكل من طرابلس وبرقة يجد له سوقا متبادلة يخفف من ارتفاع أسعار الحركة التجارية وارهاق السكان مما لو استوردت مثل هذه الأشياء من الخارج .

وعلى أى حال فان اقتصاديات البلاد كوحدة مجتمعة يمكنها أن تكفى البلاد إلى حد كبير . ولاعبرة بما كانت تطلبه البلاد من معونة خارجية فى العهد الايطالى نظراً لما حل بالبلاد من انهاك عام بسبب الحروب والهجرة ولنا فى هذه الاحصائية البسيطة مدى ما انتاب البلاد ومدى ما يمكن أن تصل إليه ثروة البلاد مع شىء من العناية .

الثروة الحيوانية لبرقة سنة ١٩١٠ الثروة الحيوانية لبرقة سنة ١٩٣٣

أى قبيل الاحتلال الايطالى		أثناء الاحتلال الايطالى	
٧١٣ر٠٠٠	راس غنم	٩٨ر٠٠	راس غنم
٥٤٦ر٣٠٠	راس ماعز	٢٥ر٠٠٠	رأس ماعز
٠٨٣ر٣٠٠	جمل	٠٢ر٦٠٠	جمل
٠٢٣ر٦٠٠	بقرة	٠٨ر٧٠٠	بقرة
٠٢٧ر٠٠٠	حصان	٠١ر٠٠٠	حصان

ولنرجع مرة أخرى للتاريخ القديم لنرى مدى علاقة طرابلس بفزان ؛ فنحن نعرف أن الفينقيين قد أتوا واحتلوا طرابلس وأقاموا المدن الثلاث ؛ ولا شك أن وجود هذه المدن الثلاث وقيامها لم يأت عفواً بل لعوامل الجغرافية هى التى ساعدت على قيامها لدرجة نجعلنا نعتقد أن قيام هذه المدن كان لا بد أن يحدث سواء أتى الفينيقيون إلى طرابلس أم لم يأتوا ؛ لأن عوامل قيامها متوفرة وإن شاءت الظروف أن يحدث ذلك على يد الفينيقيين . هذه العوامل الجغرافية التى ساعدت على قيامها كان أهمها الطرق التجارية التى تربط هذه الأماكن بفزان ومنها إلى إقليم السودان . فصبراته مثلا تقوم فى نهاية طريق تجارى إلى الجنوب يمر بغدامس وطرابلس تقوم عند نهاية طريق تجارى قديم إلى الجنوب يمر إما عن طريق ترهونه وإما عن طريق غريان. ولقد كانت هذه الطرق التجارية خير رابط بين فزان وطرابلس وموحد بين هذين الاقليمين منذ العصور القديمة . وإذا كانت تجارة القوافل قد قلت أهميتها فى الأعوام الأخيرة فما ذلك إلا لتغلغل الاستعمار الأوربى وفصله بين فزان والسودان ، وفى فصل فزان عن طرابلس القضاء النهائى على بقايا هذه التجارة وهدم ركن هام فى حياة البلاد الاقتصادية . وكان الأولى التفكير فى ضم اقليم تمبكتو الى فزان حتى تنتعش تجارة القوافل بعد كسادها مؤقتاً لا العمل على بتر فزان من طرابلس ، إذ أن الجيوش الفرنسية قد دخلت فزان للتحرير كما دخلت جنود الحلفاء فرنسا نفسها بعد انهيارها أمام الغزو الأجنبى .

وإذا كانت واحة الكفرة على رغم موقعها المنعزل ورغم قلة أهمية تجارة القوافل التى تمر بها بالنسب لما هو كائن بفزان وبرغم ظروف الحرب الأخيرة فإن الأستاذ bell (١) يذكر لنا فى

---

١ — الجزء الثامن من سلسلة

كتيبه الذى ألفه أخيراً عن واحة الكفرة أن عدد القوافل التى مرت بها سنة ١٩٤٣ كان ٧٥ قافلة كان عدد جمالها ٢٢٥٠ جملا فماذا يكون الحال فى فزان إذا أحكمت الصلة بينه وبين موانى الشمال وضم إليه تمبكتو اللاصق للسودان ؟

على أن هذه الصلة المتينة التى ربطت بين طرابلس وفزان قد أدركت منذ القدم ، ولم يدركها الفينيقيون وحدهم ، فبعد أن بسط الرومان سيادتهم على طرابلس اقتنعوا بضرورة اخضاع هذا الجزء ما لم يتم الاستيلاء على فزان ، فأمر كورنليوس بالبوس فى عهد اغسطس بتولى قيادة حملة هامة لاخضاع فزان . وكم كانت فرحة أهل روما عظيمة عندما عاد إليهم بالبوس منتصراً بعد أن وصل إلى مدينة جرمة عاصمة فزان فى ذلك الوقت. وكان الرومان يكررون إرسال هذه الحملات من وقت لآخر لضمان بقاء فزان حتى يضمنوا بقاءهم فى طرابلس كما حدث فى عهد الأمبراطور تيبروس عندما ذهب القائد فستس (Festus) على رأس حملة حربية بدأت سيرها من لبدة إلى (بونجيم) فهون ففزان . ولم يتوان الرومان عن إرسال الحملات إلى فزان حتى ضمنوا خضوعه لهم فأمنوا على طرابلس من الجنوب كما اتخذوا منه قاعدة للوصول إلى أواسط افريقية .

لا شك أن هذه العوامل الجغرافية قد بينت لنا مدى ضرورة هذه الوحدة كما اننا إذا رجعنا إلى التاريخ وجدنا العصور الذهبية لتاريخ البلاد قد تمثلت لنا عندما كانت موحدة أو أقرب إلى الوحدة . نرى ذلك فى السنوات المتقدمة من الفتح العربى ، ونرى ذلك أيام حركة أبى الخطاب الاباضى التى لو قدر لحركته أن تستمر لتمت الوحدة على يديه على أتم ما يكون . ونرى ذلك أخيراً فى العهد القره مانلى . ولولا وحدة هذه البلاد واستقلال مرافقها مجتمعة ما استطاع أحمد باشا القره مانلى أن يؤسس دولة كان لها من القوة ما ارعب الدول فى حوض البحر الأبيض وما استطاع ابناؤه من بعده أن يسيروا على هذه السياسة ويرفعوا شأن لوبيا .

ولا شك أن البلاد باجزائها الثلاثة تعانى أزمة خطيرة بسبب قلة السكان وهذه القلة لا تسمح بهذا التقسيم بل تنادى بضرورة التكتل والجمع بين هذه القلة المشطورة . ونحن نعرف من ابسط دروس التربية الوطنية التى تعلمناها فى المدارس أن من شروط قيام أى دولة هو وفرة السكان بشكل كاف حتى يمكن الحصول منهم على الدخل الذى يكفيها ويمكنها من ادارة شئون الأهالى . وحتى يمكن اختيار من يصلح لادارة شئونها إذ كلما كثر العدد زادت صلاحية الاختيار وقلت مصاريف إدارة هذه الدولة والعكس بالعكس .

وإذا كانت هناك بعض الفروق الجغرافية البسيطة بين أجزاء البلاد الثلاثة فهذه أشياء لا بد منها ولا تخلو منها أى بلاد وهذا الاختلاف البسيط ضرورى لحيويتها . وإن لم يوجد لعمل الأهالى فى [illegible] على أن هذه الفروق الجغرافية البسيطة مهما عظمت فان تبلغ ما نراه من فروق جغرافية واضحة بين شمال ايطاليا وجنوبها من حيث الجنس والحياة والعادات والحرف والمناخ وطبيعة التربة . ويكفى أن الايطاليين أنفسهم يشعرون بذلك ويتحدثون به . وكذلك إذا درسنا جغرافية فرنسا فهى فى جنوبها تختلف عن شمالها الغربى وتختلف عن شرقيها من حيث المناخ والسكان ؛ فبينما الجزء الجنوبى يتمتع بمناخ البحر الأبيض وسكانه من جنس البحر الأبيض نجد الجزء الشمالى الغربى ممطر طول العام وسكانه من الجنس النوردى ذى القامة الطويلة . وكذلك نجد الجزء الشرقى ينتمى إلى اقليم وسط أوربا كما ينتمى سكانه إلى الجنس الالبى . أما بريطانيا فيكفى أن تعرف أنها تضم انجلترا واسكتلندا وويلز . ومع كل هذا لم ينكر أحد وحدة هذه البلاد مع أن الفروق الجغرافية التى تسودها كفيلة بتمزيقها والقضاء على وحدتها . فهذه ويلز بموقعها الجغرافى المتفرق وطبيعة سطحها الجبلى وسكانها الذين يمثلون أقدم الأجناس الذين نزحوا إلى الجزر البريطانية وعقيدتهم الدينية الخاصة وشعورهم بالمحافظة عليها ولغتهم الخاصة بهم التى دفعت الحكومة البريطانية لتدريسها فى مدارس ويلز وتخصيص برنامج خاص بها للاذاعة المحلية . وان كل هذا مما نراه من وحدة الجنس واللغة والدين والعادات والتقاليد والآمال التى تربط بين لوبيا بأجزائها الثلاث . لا شك أن العدل والانصاف يتطلبان المحافظة على هذه الوحدة وتدعيمها وانا فيما قررته هيئة الأمم المتحدة أخيراً ما يحقق تنفيذها

مصطفى عبد الله بعيو
خريج جامعة فاروق ومعهد التربية العالى
بالزاوية بطرابلس الغرب